مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية مجلد(٢) العدد (١) – مارس ٢٠٢٣
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: 2812-541X الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: ٢٨١٢-٥٤٢٨
الموقع الإلكتروني: https://jlais.journals.ekb.eg

الالتزام العقدي وأثره على الدعوة الصوفية نموذجاً

أ. محمد ناصر أحمد أيوب
باحث ماجستير بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب– جامعة الوادي الجديد

Journal of Arabic Language and Islamic Sciences Vol (2) issue(1)– March2023
Printed ISSN :2812-541X On Line ISSN : 2812-5428
Website : https://jlais.journals.ekb.eg/

الالتزام العقدي وأثره على الدعوة الصوفية نموذجًا

أ/ محمد ناصر أحمد أيوب

باحث ماجستير بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب– جامعة الوادي الجديد

المستخلص

لا تزال الانحرافات العقدية مؤثرة بشدة في حياة الأمة، حتى تولد عنها الكثير من آثار التخلف، ولا يزال الطريق الصحيح هو التصحيح العقدي للمفاهيم والعقائد حتى يعتدل الطريق، وتستدرك الأمة ما فاتها.

وتدور فكرة الدراسة الحالية حول:

- الكشف بوضوح عن مدى الالتزام العقدي لدى الصوفية؛ حيث يعدُّ التصوف الإسلامي جزءًا أساسيًا في تراثنا العربي الإسلامي؛ حيث تبوأ مكانًا مهمًا في الفكر العربي الإسلامي، كما أن الاهتمام بالتصوف قديم، تناوله المؤرخون والعلماء العرب، والمسلمون (كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري، وغيرهم)، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا، والغزالي، وابن خلدون، وتجادل فيه الفقهاء، وعلماء الكلام إضافة إلى جهود المستشرقين أمثال ماسينيون، ونيكلسون، وغيرهما. ولم يتفق هؤلاء على رأي سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله؛ فاختلفت الآراء والمشارب حوله، ولهذا الخلاف القائم حول الصوفية يحاول الباحث في هذا البحث أن يوضح حقيقة الصوفية، وتاريخ نشأته، ومدى التزامهم بالعقيدة الصحيحة مع تصحيح بعض الانحرافات العقدية التي وقع فيها بعض المنتسبين إلى الصوفية

والعمل علي تفنيدها، والرد عليها من خلال الكتاب وصحيح السنة، وكذلك العمل علي التفرقة بين التصوف الإسلامي والتصوف الفلسفي.

الكلمات المفتاحية: الالتزام العقدي، الصوفية، الدعوة الإسلامية.

Abstract

Doctrinal deviations are still strongly influential in the life of the nation, until they generate many effects of underdevelopment, and the right path is still the doctrinal correction of concepts and beliefs until the path is moderated and the nation catches up with what it has missed. The idea of the current study revolves around Clearly revealing the extent of the doctrinal commitment of Sufism, where Islamic mysticism is an essential part of our Arab-Islamic heritage, as it occupied an important place in Arab-Islamic thought and interest in ancient mysticism, addressed by Arab and Muslim historians and scholars (such as Tusi, Kalabadhi, Al-Qushayri and others), as well as philosophers such as Ibn Sina, Al-Ghazali and Ibn Khaldun, and argued by jurists and theologians, in addition to the efforts of orientalists such as Massignon, Nicholson and others. These did not agree on the opinion, whether it comes to its limits or origins, so opinions and stripes differed around it, and for this disagreement about Sufism, the researcher tries in this research to clarify the fact of Sufism and the history of its inception and the extent of their commitment to the correct faith with the correction of some doctrinal deviations that occurred in which some of the affiliates of Sufism and work to refute and respond to them through the book and the true Sunnah, as well as work to differentiate between Islamic mysticism and philosophical mysticism.

Keywords: doctrinal commitment, Sufism, Islamic call

لما كانت العقيدة الإسلامية الصحيحة هي العلم الأساسي الذي يجدرُ العناية به تعليمًا وتعلمًا، وعملًا بموجبه؛ لتكون الأعمال صحيحةً مقبولة عند الله –تعالى– نافعة للعامِلين، خصوصًا ونحن في زمن كثرتْ فيه التيَّارات المنحرفة؛ ومنها: تيار الإلحاد، والصوفية الفلسفية، وتيار البدع المخالفة للهَدْي النبوي، وكلها تيَّارات خطيرة ما لم يكن المسلِم مسلَّحًا بسلاح العقيدة الصحيحة، المرتكزة على الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة؛ فإنه حريٌّ أن تَجرِفَه تلك التيارات المضِلَّة. وهذا ما يستدعي العنايةَ التامَّة بتعليم العقيدة الصحيحة لأبناء المسلمين من مصادرها الأصلية، وهذا ما دفع الباحث إلي هذه الدراسة لمعرفة مدى الالتزام بتلك العقيدة الإسلامية الصحيحة من عدمه، وعرض بعض المخالفات العقدية عند بعض الفرق الإسلامية، والرد عليها في ضوء الكتاب والسنة.

مقدمة:

يمثل التصوف بشكل عام نزعة دينية، وهي في جوهرها تعبير عن إشباع الجانب الروحي، والزهد في متع الحياة الفانية، والركون إلي قوة أعلى، والرغبة في التعالي عن الشهوات المادية، بغية الارتقاء في سلم الصفاء الروحي والوصول إلى السعادة. والمسلمون ليسوا بدعًا في نزوع طوائف منهم إلي التحلي بهذه الصفة، ونبذ المتع والزهد في الشهوات، والسعي نحو الرقي الروحي، غير أن لكل مجتمع خصائصه التي تميزه من منطلق عقيدته التي يؤمن بها؛ لذلك نجد التصوف في المجتمع الإسلامي في منطلقاته وقيمه يستند إلي تعاليم الدين، فهو امتداد لطريقة الزهد عند الرسول –صلى الله عليه وسلم– وعند الصحابة والتابعين رضوان الله عنهم جميعًا، وظهور التصوف كان حالة طبيعية لمجتمع تكون ثقافته إسلامية متكاملة، فهو قائم على النزعة الروحية المستمدة من الزهد على أساس الدين.

أهمية الموضوع: تكمن أهمية الموضوع في أن الباحث يصبو إلي تصحيح المفهوم الخطأ للالتزام العقدي، ومواجهة الأفكار المخالفة لصحيح العقيدة الإسلامية، والرد عليها من خلال الكتاب وصحيح السنة.

أسباب اختياره:

١- تفشي ظاهرة الالتزام الأجوف في المجتمع.
٢- تصحيح مفهوم الالتزام العقدي وفق العقيدة الصحيحة ووسطية الإسلام بعيدة عن انحرافات الفرق الإسلامية والأفكار الشاذة.
٣- الاختلاف الشديد على الصوفية بين مؤيد ومعارض والخلط بين التصوف الديني والتصوف الفلسفي.

الدراسات السابقة: من خلال الاطلاع والاستقراء وجد الباحث وفق ما اطلع عليه من مصادر متاحة لديه أن هذه الدراسة قد تناولها بعض الباحثين من الجانب التربوي والنفسي، وعلاقتها بالقيم الاجتماعية، أو دراسة على فئة معينة أو بلد معين، وتختلف

دراسة الباحث بأنها تتناول قضية الالتزام العقدي من منظور شرعي، وعلاقته بالفرق والأفكار العصرية الحديثة.

بعض الدراسات السابقة في موضوع الالتزام:

١- الالتزام الديني وعلاقته بكل من قلق الموت وخبرة الأمل لدى طلبة كلية التربية بغزة للباحث/محمد إبراهيم عسليه.

٢- الالتزام الديني في الإسلام وعلاقته بالاكتئاب النفسي لدى عينة من طلاب جامعة أم القرى بمكة المكرمة للباحث/سالم سعيد سالم الشهري.

تقسم الدراسة على النحو التالي:

التمهيد:- التعريف بمصطلحات البحث (الالتزام – العقيدة- الالتزام العقدى).

المبحث الأول:- الالتزام العقدي عند الصوفية.

المبحث الثاني:- الخصائص الظاهرة للطرق الصوفية فى مصر وغيرها من البلدان العربية وأثرها على المجتمع.

التمهيد:-

تعريف الالتزام لغة: يُطلق الالتزام في اللغة على معانٍ عدّة؛ منها: الثبوت والدوام يقال "لزم الشيء يلزم لزومًا ثبت ودام..... "[١]، والاعتناق والتمسك بالشيء، يقال "والتزمته اعتنقته فهو ملتزم، ومنه يقال لما بين باب الكعبة والحجر الأسود الملتزم؛ لأن الناس

[١] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

يعتنقونه أي يضمونه إلى صدورهم"[١]، والفرض والإيجاب، يقال التزم الشَّخصُ بالأمرِ: أوجبه على نفسه ..... "[٢]

الالتزام اصطلاحًا: هو واجب ثابت يستلزم من الشخص القيام به والمداومة عليه لصالح شخص آخر، أو لمصلحة معينة هو المسؤول عنها، ولا يمكنه تركها أو التخلف عن أدائها مثل الالتزام بإعطاء شيء ما أو أداء عمل. ومن خلال التعريفين السابقين لمفهوم الالتزام تبين للباحث وجود علاقة وطيدة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي؛ فكلاهما يدور حول الثبوت والدوام على الشيء والتمسك به، فهو واجب ثابت يوجبه الشخص على نفسه ويلتزم به ويداوم عليه.

أما العقيدة في اللغة: من العقد، وهو الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشد بقوة، والتماسك، والمراصة، والإثبات؛ ومنه اليقين والجزم. والعقد نقيض الحل، ويقال: عقده يعقده عقدًا، والعقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده"[٣]

العقيدة اصطلاحًا– هي الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقينًا ثابتًا لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك. أي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده، ويجب أن يكون مطابقًا للواقع، لا يقبل شكًا ولا ظنًا؛ فإن لم يصل العلم إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة "[٤]

---

[١] المصدر السابق.

[٢] معجم اللغة العربية المعاصرة المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) الناشر: عالم الكتب الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

[٣] الموسوعة العقدية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net

[٤] الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة) المؤلف: عبد الله بن عبد الحميد الأثري مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ص٢٤

فالمقصود بالالتزام العقدي من خلال التعريف بمصطلحي الالتزام والعقيدة لغة واصطلاحًا تبين للباحث أن معنى الالتزام العقدي هو:- أن يلتزم المرء قولًا وعملًا بما يعتقد بقلبه سواء أكان هذا الاعتقاد صحيحًا أم باطلًا.

الالتزام العقدي: مرتبط بصحة الاعتقاد القلبي في الله –عز وجل– وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وهذا هو ما عناه النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث جبريل عندما سأله عن الإيمان من حديث عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– قال بينما نحن عند رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ذات يوم؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد ! أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق، فلبث مليًا، ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".[1] الشاهد: أنه قال له أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

[1] رواه مسلم (٢٩/١) ، والنسائي (٢٦٤/٢ . ٢٦٦) ، والترمذي (١٠١/٢) ، وابن ماجه (٦٣) ، وأحمد (٢٧/١ و٢٨ و٥٢ و٥٣) وزاد في آخره " ما أتاني في صورة إلا عرفته ، غير هذه الصورة " وفي رواية له " فمكث يومين أو ثلاثة ثم قال: يا ابن الخطاب أتدري..... " وإسنادهما صحيح. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

المبحث الأول:- الالتزام العقدي عند الصوفية.

تعريف التصوف لغة: تعددت الآراء واختلفت وجهات نظر الباحثين ومؤرخي التصوف في الأصل الاشتقاقي اللغوي لمفهوم التصوف، ولقد ورد مفهوم التصوف في معاجم اللغة تحت مادة صوف على عدة معانٍ منها إطلاق كلمة صوف على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، قال الله تعالى "وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ"[1]. والطوسي[2] أيضًا يؤكد ذلك " كذلك الصوفية عندي نسبوا إلي ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها متمرسون؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام، والصديقين وشعار المساكين المتسكعين[3] فلبسوا الصوف الخشن، وكانوا يؤثرون لبسه دليلًا على التقشف والخشونة.

وقيل إن الصوفية ينتسبون إلى الصفاء، وأنهم سموا صوفية لصفاء أسرارهم وشرح صدورهم وضياء قلوبهم، وهذا يرجع إلى حال الصوفية، وليس إلى الاشتقاق اللغوي، ويرى القشيري[4] أن هذا غير صحيح؛ لأن نسبة الصفاء هي صفائي[5]، وهذا رأي الكلاباذي[6] أيضًا؛ فالصوفية ينتسبون إلي الصفاء، وأنهم سموا صوفية لصفاء أسرارهم، وشرح صدورهم، وضياء قلوبهم، صفاء القلب والروح والخلق؛ فالصوفية أكثر

---

[1] سور النحل الآية/ ٨٠

[2] أبو نصر عبد الله السراج الطوسي شيخ الصوفية على طريقة السنة ملقب بطاووس الفقراء وتنقل بين بلاد كثيرة منها القاهرة وبغداد ودمشق توفي ٣٧٨هـ-٩٨٨م

[3] الطوسي: اللمع ، حققه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر_ مكتبة المثنى بغداد ، د . ط ، ١٣٨٠هـ_١٩٦٠م ،ص ٤١

[4] الإمام الزاهد أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي صاحب الرسالة القشيرية، الملقب ب زين الإسلام ولد سنة٣٧٦ وتوفي سنة ٤٦٥

[5] الرسالة القشيرية :القشيري، دار الكتاب العربي بيروت ص١٢٧

[6] الإمام الصوفي أبوبكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي صاحب كتاب التعرف على مذهب أهل التصوف ولد في بخارى في القرن العاشر وتوفي ٩٩٤م.

الناس صفاء [1] كما تنسب_ أيضًا_ إلى أهل الصفة الذين نزلوا في مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فهم الرعيل الأول من رجال التصوف؛ فقد كانت حياتهم التعبيرية الخالصة المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف، وكانوا من شدة عفافهم، وغيرتهم وفقرهم يجعلون الصوف لباسهم.

وقيل إنها مشتقة من الصف الأول؛ لأن الصوفية يقفون فيه أمام الله –جل وعلا– لارتفاع همومهم إليه وتقربهم إليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[2]؛ فهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى وتسابقهم في سائر الطاعات. وتطلق أيضًا على نبته زغباء قصيرة[3]؛ فهذه النبتة قصيرة لا تحتاج إلى رعاية وعناية، كذلك الصوفية يعيشون حالة التقشف والزهد في الأكل والشرب .كما نسبت أيضًا سوفيا اليونانية، ومعناها الحكمة، والقائلون بذلك حجتهم إن القوم كانوا طالبين للحكمة، حريصين عليها؛ فأطلقت عليهم الكلمة، وعربت أو حرفت صوفية وصوفي.[4]

المفهوم الاصطلاحي للتصوف: مفهوم التصوف من المفاهيم التي لم يتفق على تعريفها لغة واصطلاحًا، فمن الصعب أن نحصر تعريفًا جامعًا مانعًا للتصوف؛ لأن التصوف مر بالعديد من الأدوار والمراحل والتغيرات، فلابد أن يختلف مفهوم التصوف من عصر لآخر؛ بالإضافة أن التصوف تجربة روحية فردية، وهذه التجربة تختلف من شخص إلى آخر؛ فيختلف معنى التصوف من صوفي إلى آخر باختلاف تجاربه " لقد اجتهد

---

[1] التعرف لمذهب أهل التصوف: الكلاباذي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة مصر، ط ٣، ١٤٠٠هـ، ص ٢٨

[2] التعرف لمذهب أهل التصوف: الكلاباذي، مكتبة الكليات الأزهرية ،القاهرة مصر ،ط٣ ، ١٤٠٠هـ، ص ٢٨،٢٩

[3] القاموس المحيط : مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة : بيروت ، ط ٨ ، ٢٠٠٥م ، مادة صوف ، ص ٨٢٩

[4] نشأة الفلسفة الصوفية: عرفان عبد الحميد، ط٨ ، ص ١٠٨، نقلًا عن نيكلسون مؤلف دائرة معارف معارف القرن العشرين.

الصوفية في تقديم التعريف الجامع المانع، وتفرقوا أو تنوعوا أكثر ما التفوا أو اتفقوا، وبثوها مبعثرة ومعقدة، كما قدموا تعريفات بسيطة أو مبسطة مكثفة"[١]

وسوف أعرض بعض من هذه التعريفات على سبيل المثال لا الحصر: يعرفه الجرجاني: بأنه "هو علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة، ويسعى إلى تصفية القلوب والطهر والتجرد، ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي"[٢]، ويعرفه حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي بأنه: "هو طرح النفس في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية؛ فإن تصفية القلب عن مرافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النقائية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، وإتباع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الشريعة[٣]؛ فهو تزكية النفوس، وصفاء القلوب، وإصلاح الأخلاق. وعند الجنيد: لحوق السر بالحق، ولا ينال ذلك إلا بفناء النفس عن الأسباب لقوة الروح والقيام مع الحق[٤].

والتصوف مذهب إسلامي، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله ومعرفته والعلم به، عن طريق الاجتهاد في العبادة واجتناب نواهيه، وتربية النفس، وتطهير القلب من كل الشوائب الدنيوية، والتحلي بالأخلاق الحسنة؛ فالتصوف هو "مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازل والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال، وكل تلك المقامات[٥]، وكل صوفي يعبر عما وجد؛ لذلك التصوف يختلف من صوفي إلى آخر، فلا ينطبق عليه

[١] علي زيعور : النظريات في فلسفة الوجود والعقل والخير ، أسئلة الأيسيات والمعرفيات والقيميات ، دار النهضة العربية : بيروت لبنان ،ط ١٤٢٦ ، ١هـ ، ٢٠٠٦م، ص .

[٢] الجرجاني: التعريفات، طبعة حلبي، القاهرة . مصر، د.ط ، ١٩٣٨م ، ص ٤

[٣] الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين، دار السعادة . مصر ، د.ط ، ١٩٢٤،ص .

[٤] التعرف لمذهب أهل التصوف: الكلابادي، مصدر سابق ذكره ، ص. ٩

[٥] التعرف لمذهب أهل التصوف: الكلابادي، مصدر سابق ذكره ، ص ١٠

حد واحد إن علم التصوف لا يمكن حده؛ لأنه إشارات، وبوادر، وعطايا، وهبات يعرفها أهلها.[1]

التصوف تهذيب النفس، وتطهير القلب من الرذائل والخطايا، ومجاهدة النفس للحد من الشهوات؛ فهو يرتقي بالإنسان إلى تهذيب سلوكه، عن طريق السمو عن الشهوات، للفوز برضا الله والفوز بسعادة الدارين.

المبحث الثاني:– الخصائص الظاهرة للطرق الصوفية فى مصر وغيرها من البلدان العربية وأثرها على المجتمع:

إذا كان الطريق الصوفي يقوم على عدة ملامح تتمثل في الشيخ والمريد والعهد الذي يكون بينهما؛ فإن الطرق الصوفية على وجه العموم تمتاز بعدة خصائص يمكن توضيحها كما يلي:

أولًا– إقامة الموالد التي تتمثل في الاحتفال بذكرى شيخ الطريقة، وأولياء الله الصالحين الذي ساعد على إحيائها، وتعددها، وانتشارها تلك الأضرحة الكثيرة المنتشرة في كل مكان من أرض الكنانة وغيرها، وإذا كانت الموالد تقام لإحياء ذكرى رجالات الإسلام، وأعلامه؛ فالمفروض أن تكون مناسبات تدعيم وتجديد للقيم الإسلامية والروحية لا أن تكون بهذه الصورة المشوهة التي تصحب وتستصحب إقامة الموالد. وتعدُّ ورقة رابحة في يد أعداء الصوفية، وليس العيب في إقامه الموالد؛ بل هو عيب التنظيم والإعداد، ويجب على مشايخ الطرق الصوفية أن يعملوا على تطهير تلك الموالد، وما يشوبها من هؤلاء الأدعياء الذين شوهوا صورة الطريق الناصعة لدرجة أن بعض أهل مصر يتصور تصورًا خطأً أن التصوف في الطريق يعني موالد، ولبس خرق وعمامات حمراء، أو خضراء، أو سوداء، أو استرسال شعور طويلة، وحركات حواة، وقبض على الثعابين، وطبول، وغناء غريب، ورقص، وتمايل، وحقيقة أن معظم التجمعات الكبيرة تحوي معظم هذه الظواهر، ومن العجيب أن ما يحدث الآن في الموالد هو ما كان

[1] عوارف المعارف: السهروردي، دار الكتاب العربي: بيروت . لبنان ، د.ط ، ١٤٠٣هـ ، ص٥

يحدث في الموالد القديمة خصوصًا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وقد ذكر الجبرتي نماذج لذلك منها على سبيل المثال أن في الموالد كان يجتمع الناس، وينصبون خيامًا كثيرة، وصواوين، ومطابخ، وقهاوي، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس، وخواصهم، وعوامهم، وفلاحي الأرياف، وأرباب الملاهي، والملاعب، والغوازي، والبغايا؛ فيملؤون الصحراء والبساتين، ويطئون القبور، ويبولون، ويتغوطون، ويزنون، ويلعبون، ويرقصون، ويضربون بالطبول والزمور ليلًا ونهارًا، ويجتمع لذلك العلماء والفقهاء، ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار؛ بل كانوا يعتقدون أن ذلك قربة وعبادة، ولو لم يكن ذلك لأنكره العلماء فضلًا عن كونهم يفعلونه[1]

ومما ساعد على الاعتقاد في الموالد وانتشارها تلك الكتابات الغريبة التي كتبها مروجو الكرامات أمثال الشيخ يوسف النبهاني صاحب كتاب كرامات الأولياء، وفي عصرنا هذا نلحظ أن ما ذكره الجبرتي يتكرر بصفة مستمرة في الموالد التي تُقام حول الأضرحة؛ بل زاد الطين بلة شرب المفترات والخمور؛ إن الاحتفال بمولد أحد الصالحين، أو نبي الإسلام –صلى الله عليه وسلم– ليس معناه الطبل والزمر، وبيع الحلوى، وارتكاب المنكرات؛ بل هو الاقتداء بالسير الذاتية التي تتفق مع طبيعة الدين، والعقل السليم، ومعلوم أنه ليس عندنا في الإسلام إلا عيدان عيد الفطر وعيد الأضحى؛ لكن يوم المولد النبوي أكبر وأعظم من العيد، وإن كنا لا نسميه عيدًا، فهو الذي جاء بالأعياد والأفراح، ومن حسناته كل الأيام العظيمة في الإسلام، فلولا مولده ما كانت البعثة، ولا نزول القرآن، ولا الإسراء ولا المعراج، ولا الهجرة، ولا النصر في بدر، ولا الفتح الأعظم؛ لأن كل ذلك متعلق به صلى الله عليه وسلم وبمولده .

ثانيًا– ارتداء الخرقة تعدُّ الخرقة من الخصائص التي تميز أتباع الطرق الصوفية في العالم، والخرقة هي شعار الصوفي، وهي أيضًا عبارة عن قطعة ثوب ممزقة ترمز لفقره وخشونته يلبسها الشيخ لمريده دلالة على التفويض والتسليم، ولا يمنحها إياه إلا بعد أن

[1] كتاب تاريخ الجبرتي ط١٣٢٢هـ القاهرة ج١:– نقلًا عن د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر: ص٤٧

يقضي مرحلة رياضية خاصة، لم يكن لها في البدء لون ثابت، ثم أصبحت بعد ذلك كل طريقة تتخير لونًا خاصًا[١]، ويعتمد الصوفية في لبس الخرقة على حديث نبوي ويقولون إنه سنة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– ولذا يقول الهجو يري في كتابه كشف المحجوب.[٢]

"إن لبس المرقعة شعار المتصوف، ولبس المرقعات سنة– ومن هنا قال الرسول –صلى الله عليه وسلم "عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم"[٣] وأحسب أن هذا الحديث ضعيف؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يرتدي الصوف والقميص وغيرهما، ولا يمكن أن نتصور أن لبس الصوف يجعل في قلب المسلم حلاوة الإيمان؛ فهناك الملايين من البشر يرتدون الصوف، ولا إيمان عندهم، ولا يستشعرون حلاوة الإيمان في قلوبهم؛ فإذا لم يكن المريد يملك الإيمان الحقيقي؛ فإنه لن يشعر قط بحلاوته، وتكون خرقة الصوف هي مجرد خرقة الصوف لا غير ولا معنى، ولا جوهر لها، والحديث الصحيح الذي ورد في هذا الموضوع هو حديث السيدة عائشة –رضي الله عنها– ونصه عن عائشة –رضي الله عنها– قالت خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود.[٤]

وفي عصرنا هذا نرى بعض أصحاب الطرق يرتدي زيًا مرقعًا ومربوطًا فيه مجموعة من الحبال، والسبح المشكلة، والأحذية الصغيرة، ورباطات العصب النسائية

---

[١] الموسوعة العربية الميسرة: محمد شفيق غربال: ج١ ص٧٥٤

[٢] كشف المحجوب: الهجويري: ص ٢٤١

[٣] رواه الحاكم في المستدرك عن أبي أمامة (شرح الجامع الصغير: ج٢: ص ١٠٧) وهذا الحديث لم يرد في الكتب الستة، إلا أن البيهقي تعقبه في شعب الإيمان، ولكن الحديث الذي ورد في هذا الشأن هو : ما رواه أبو بردة في صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب اللباس، باب التواضع في اللباس،ج٣: ص ٥٧ ونص الحديث عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا السيدة عائشة رضي الله عنها إزارًا وكساءً ملبدًا، وقالت في هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، والملبد: هو المرقع من ثياب الصوف وغيرها.

[٤] كتاب اللباس، باب التواضع في اللباس: النووي شرح صحيح مسلم ج١٤، ص ٥٧

الملونة، فهل هذا من الدين أم أنه دخيل على الدين، والفكر الإسلامي من أجل تشويه الصورة العامة للإسلام وأتباعه؟ وهل من الدين أن يمسك الدرويش عصا من جريد النخل، ويتمايل يمينًا وشمالًا، ويقول حي، ويذكر الله، وهو على غير وضوء هذا هو حال الدخلاء والمدسوسين في التصوف والصوفية؛ أما المتورع عن هذه الأفعال والفاهم لتعليم الإسلام فهو المتصوف الحق الذي وقر الإيمان في قلبه، وصدق عمله قوله، والشيخ الصوفي عندما يأمر مريدة بلبس الخرقة، ويطلب منه أن يتطهر، ثم يأمر بوضع الخرقة بين أيديهما، ويقرأ الفاتحة، ثم يلبس الشيخ بيده الخرقة للمريد قاصدًا بذللك الإنابة إلى الله تعالى ورسوله، ثم يذكر له نيتها كأن يقول ألبسها كما ألبسني إياها شيخي فلان إلى أخره.[1]

ثالثا- السماع الصوفي: وهو أحد الجوانب التي تميز الطرق الصوفية قديمًا وحديثًا عن غيرها، والمقصود بالسماع الصوفي هو كل ما يسمع ويجري في حلقات الذكر أو في مجالس السماع من الغناء، والأناشيد، والألحان، والأشعار، والأصوات سواء أداها رجل أم امرأة، واستخدام الطبول والدفوف، وما استحدث من آلات، وما يصاحب ذلك من التصفيق، والرقص، والتمايل، والصياح، والصراخ، والاضطراب النفسي، وتمزيق الثياب، وخلع الخلق، وفقدان الوعي؛ بل فقدان الحياه أحيانًا على ما ذكر بعض الصوفية أنفسهم.

وفي نظر الصوفية ثمة علاقة وثيقة بين السماع والوجد والتواجد؛ فالسماع يثير حالة في القلب تسمى الوجد، ويثمر الوجد في قلوبهم مواجيد ومشاعر وعواطف ووجدانات، ومعاني تجاه الله تعالى من حب، وشوق، وهجر، ووصل، وقرب، وبعد،

[1] كتاب ظهور الحقائق في بيان اللطائف: السيد بن عبد الله بن علي بن حسن الغطاس ، ط عام ١٣١٢هـ.

وخوف، وطمأنينة، وما إليها، كما يثمر حركات بدنية غير موزونة أحيانًا؛ فتسمى بالاضطراب، أو موزونة فتسمى التصفيق والرقص.[1]

على أن هناك فرقًا بين الوجد والتواجد؛ فالتواجد استدعاء الواجد بضرب اختيار، وليس لصاحبه كمال الوجد، إذ لو كان لكان واجدًا لا متواجدًا؛ أما الوجد فهو ما يصادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الأخرة، أو كشف حال بين العبد والله –عز وجل– بلا تعمد وتكلف، ومعنى هذا أن التواجد في السماع، أو في الخلوة فعل إرادي يقصد إليه الصوفي باختياره مع تكليف؛ أما الوجد: فلا إرادة له فيه ولا تكلف، وإنما يرد عليه مصادفة فهو غير مكتسب.[2]

وبالطبع فإذا كان السماع يهدف إلى اللعب بالغرائز والشهوات، فهو منهي عنه وخاصة رأي أئمة المسلمين المجتهدين هو التحرز من السماع والإقلال منه خوفًا من أن يؤدي إلى شرور النفس وفسادها.[3]

فالإمام أبو حنيفة النعمان –رضي الله عنه– يجعل السماع من الذنوب، وكذلك صح عن الإمام مالك –رضي الله عنه– إنكار السماع وكراهيته، والشافعي –رضي الله عنه– يجعله للعوام مكروهًا، ولا يلحقه بالمحرمات؛ بل كان يجعله بما يسقط المروءة، والإمام أحمد بن حنبل ينهى عنه من حيث الورع، ويوضح هذه الآراء الشيخ عبد القادر الإربلي صاحب كتاب حجة الذاكرين ورد المنكرين؛ فيقول السماع عند الشافعية لهو وحرام، ويشبه الباطل، وترد شهاده محله.

وعند المالكية يجب على ولاة الأمور زجرهم ومنعهم، وإخراجهم من المساجد إن كانوا يفعلون في المسجد، وعند الحنابلة لا يصلى خلفهم، ولا تقبل شهادتهم، وعقد

---

[1] كتاب الإحياء :الغزالي:ج٢:ص٢٣٧

[2] كتاب التصوف النفسي: عامر النجار (دكتور)، ط عام ١٩٨٤م القاهرة ص ١٣٥، ١٣٦.

[3] الأستاذ/ علي سالم عمار:ط عام ١٩٦١م. ط الأولى .نشر دار التأليف بالقاهرة ج٢ ص ١٥٢.

النكاح على يدهم فاسد. وقد قسم العز بن عبد السلام في القرن السابع الهجري السماع إلى ثلاثة أقسام فقال

١- حرام محض- وهو لأكثر الناس من الشباب، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وملكهم حب الدنيا.

٢- ما هو مباح لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن، واستدعاء السرور، والفرح، أو يتذكر غائبًا أو ميتًا؛ فيثير حزنه فيروح بما سمع.

١- ومنه ما هو مندوب وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الشوق إلى الله تعالى، وبعد ذلك يقول العز بن عبد السلام: ومجمل القول في ذلك أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه، وتذكر به حظ دنياه فاستثار بسماعه، وسواس هواه؛ فالسماع عليه حرام محض، ومن سمع فظهر له ذكر ربه، وخوفه من ذنبه وذكر آخرته؛ فأتيح له ذلك الذكر شوقًا إلى الله تعالى وحبًا فيه ورجاءً لوعده وخوفًا من وعيده؛ فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب في صحائف الأبرار.[١]

وإذا استعرضنا آراء الصوفية في رسالة القشيري، وكتاب اللمع للطوسي نجد لهم آراء وفتاوى في قضية السماع حسب مفاهيمهم، ودرجاتهم في الورع والتقى؛ فمنهم من عده بدعة ضارة، وتحريضًا على الرذيلة؛ فقال بإنكاره، ومنهم من جعل الحكم عليه بحسب ظروفه ومناسباته، وأثره فإن كان الأثر محمودًا أجازه، وإن كان الأثر سيئًا أنكره، ونهى عنه، ومنهم من جعله مندوبًا، وقال بإطلاقه[٢]، وقال أبو سليمان الداراني: وكل قلب يريد الصوت الحسن، فهو ضعيف يداوى كما يداوى الصبي إذا أريد أن

[١] كتاب حلية الرموز ومفاتيح الكنوز – أو بين الشريعة والحقيقة العدد رقم٢٥ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة: العز بن عبد السلام ،عام١٩٦١م ص ٢٨،٢٩.

[٢] كتاب أبو الحسن الشاذلي: علي سالم عمار: ج٢ ص ١٥٢.

ينام[1]، قال الطوسي أيضًا في كتاب اللمع، وأهم ما امتاز به الصوفية هو التحرز في السماع، وهم يكرهون السماع إذا تطرق الغرض منه إلى الفساد والمخالفة، واللهو، وترك الحدود.[2]

وبعد هذا العرض المبسط يرى الباحث أنه إذا كان الهدف من السماع قصد اللهو، واللعب، والتسلية، واشتغال النفس، وانبساطها، وفسادها، وسرورها، وتقويه الغرائز، وامتدادها والتلذذ، فهذا محرم؛ أما إذا كان السماع بعيدًا كل البعد عن المجون بريئًا من اللهو واللعب يقصد به صاحبه سمو روحه، وارتفاع نفسه بهمته، فهو ليس مكروهًا.

رابعًا– الذكر: يعدُّ الذكر من أهم الوسائل التي اهتم بها الصوفية في الوصول إلى رضوان الله –عز وجل– ولذا قال الإمام القشيري في رسالته الذكر ركن قوي في طريق الوصول إلى الله –سبحانه وتعالى– بل هو العمدة في طريق القوم، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر.[3]

إن ذكر الله دائمًا ذكرًا حقيقيًا يستغرق بكليته في الله؛ فإذا ذكر الصوفي الله استغرق فيه، وحضر مع الله بجمعيته، فلم يشتغل بما سواه، ولم يغفل عنه حتى يستولي جلال الله على قلبه بعد أن غاب الذاكر في ذكره حينئذ ينكشف له بصحة وبال الغفلة، ويمحي من قلبه أثر كل علاقة وعلة؛ لأن تعلق القلب بالله يجعله فارغًا عن كل ما سواه؛ فالذكر وسيلة لتخلية القلب عن كل هم، أو بالتعبير الفلسفي وسيلة لانفصال الذات عن كل موضوع خارجي، أو عن التعلق برغبة ما.[4]

---

[3] الرسالة القشيرية ج٢: القشيري، ص ٦٥٦.

[4] كتاب اللمع للطوسي ص ٣٤٢و٣٥٢

[3] الرسالة القشيرية : ص٢١٢.

[4] أحمد محمود صبحي (دكتور) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ، نشر دار المعارف بالقاهرة ،ط عام ١٩٦٩م: ص ٢٥٣.

إن مجالس الذكر ليست بدعة في جوهرها، وإنما هي ارتفاع بالإنسان فوق الماديات وجلاء لقلبه، وطهر لنفسه، ولكن الذي يدعو إلى إنكار الذكر في عصرنا تلك الحلقات الغريبة عن مجالس الذكر الحقيقي التي أبتدعها بعض المنتسبين إلى الطريق ظلمًا؛ بإضافة إلى حركات الذكر التي اصطنعوها، والأصوات العالية المرتفعة من الأفواه والحناجر، وهذا ليس من الذكر في شيء؛ إنما الذكر الحقيقي معناه أن يكون الإنسان على صلة دائمة بالله في عباداته وعمله وخلوته، وحين يكون مع الناس؛ فهذا الذكر هو الذي يجعل المؤمن يستحي من ربه، فلا يغفل عن مراقبته، ولا يجرؤ على معصيته، ولا يقصر فيما أوجب عليه، وهو في حالاته كلها ممتلئ القلب بالخشوع لله والامتثال له والحياء منه.

أما طريقة الذكر التي ابتدعها الأدعياء من المريدين والأتباع في الطرق الصوفية، وما اشتملت عليه من الألحان، والإيقاعات، والدف والموسيقى، وما شابه ذلك هي التي شوهت ذكر الله تعالى، والدليل على ذلك الذي يكون عليه إنشاد ذكر الله، وهو إيقاع جماعي لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، أو عبارة الله حي، وعبارة هو الله؛ فهذه العبارات يتخللها إيقاعات، وألحان أخرى لقصائد دينية تسمى بالإنشاد الديني الذي يصحبه تمايل، واهتزاز لأجساد المريدين، والأدعياء المدسوسين في الطرق الصوفية هذه الطريقة المنحرفة لذكر الله تعالى أوجدت هوة كبيرة بين رواد الطرق الصوفية الأجلاء الذين أنكروا بشاعة هذا العمل من الأدعياء، وأصحاب الأصابع الخفية لتشويه الصورة المثلى للدين، وتعاليمه السامية، ولذا يجب علينا أن ننتبه لهذه الدسائس، وأن نحذر منها، وأن نعمل على إصلاح ما أفسده هؤلاء حتى لا يتهم التصوف الحقيقي، واتباعه بسبب هذه الأعمال المنافية لصحيح الدين.

خامسًا- زيارة الأضرحة وقبور الأولياء.

إن من الخصائص التي تميز بها الصوفية زيارة الأضرحة، وقبور الأولياء، والصالحين، ومقامات السادة مشايخ الطرق الصوفية، والتبرك بهم، وإقامة الاحتفالات

الدينية، والموالد، والتقرب إلي الولي بدفع الأموال الباهظة، أو إهراق دم _أعني أن يذبح شاة أو ما شابه ذلك– من باب القربة، أو إيفاء نذر، أو بلوغ نفع، أو دفع ضر– على حد زعمهم– ولكن من الإنصاف يجدر بالباحث أن يقف أولاً على حكم زيارة القبور والأضرحة ليقف الباحث على مشروعية ما يفعله الصوفية من عدمه.

إن زيارة الأضرحة وقبور الأولياء، وقبور المسلمين عمومًا للاعتبار والذكرى في الموت والآخرة، والدعاء لهم، والترحم عليهم؛ فهذا مشروع، لقول النبي: زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة[1]، وكان النبي يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية.[2]

هذه الزيارة الشرعية تشمل الرجال والنساء؛ وكانت الزيارة ممنوعة أولًا في أول الإسلام ممنوع؟ لأنهم اعتادوا التعلق بالأموات فكان من حكمة الله أن نهاهم عن الزيارة أولاً جميعًا رجالاً ونساءً، ثم رخص لهم في الزيارة رجالًا ونساء، ويقصد منها الذكرى والترحم على الموتى والاستغفار لهم وتذكر الآخرة، حتى لو كانوا كفارًا الميتين إذا زار القبور للذكرى فقط لا يدعو لهم ولا يسلم عليهم؛ لأنهم كفار، إنما يزور للذكرى كما زار النبي أمه، وكانت ماتت في الجاهلية، واستأذن ربه أن يستغفر لها فلم يؤذن له، فزارها فقط مجرد اعتبار. فالقبور التي للمسلمين تزار للدعاء لهم، وتذكر الآخرة والموت والاستغفار للموتى فقط، وإن كان الموتى كفارًا فالزيارة تكون للذكرى والاعتبار فقط.

أما النوع الثاني من الزيارة: فهي غير جائزة، وهي أن يزورهم لدعائهم والاستغاثة بهم، والنذر لهم، وطلبهم المدد والعون والغوث، أو التمسح بقبورهم وأحجارهم، أو الطواف بها فهذا كله لا يجوز، وهذه الزيارة لا تجوز التي يفعلها بعض العوام، يزورون القبور

[1] كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه برقم ٩٧٦ أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب زيارة قبر المشرك برقم ٢٠٣٤ النسائي

[2] كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم ٩٧٥ أخرجه مسلم.

ليسألوهم ويستغيثوا بهم، كما يقع هذا في بعض الأحيان من بعض العوام مع البدوي أو مع الحسين، أو مع الشيخ عبد القادر في العراق أو غير ذلك، هذا لا يجوز.

فالزيارة هي نوعان: شرعية، وممنوعة بدعية؛ فالشرعية أن يزوروا للترحم عليهم، وذكر الآخرة وذكر الموت فقط، فهذه شرعية مطلوبة مأمور بها. الزيارة الثانية بدعية منكرة، وهي: أن يزور القبور لدعاء الموتى والاستغاثة بالموتى أو الدعاء بهم والتوسل بهم، أو التمسح بقبورهم، أو الطواف بها، أو الصلاة عندها، فهذا ممنوع. وهو مختلف وأنواع بعضه شرك وبعضه بدعة.

فالصلاة عندها والجلوس عندها للدعاء هذا بدعة، أما الطواف بهم ليشفعوا له أو لينفعوه، أو دعاؤهم أو الاستغاثة بهم، أو النذر لهم، أو طلب المدد، فهذا من الشرك الأكبر الذي حرمه الله، ونهى عنه عباده[1].

يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق-رحمه الله تعالى-: أباح الرسول .صلى الله عليه وسلم. لأصحابه وعلَّمهم زيارة القبور، وزارها، وزاروها رجالًا ونساء، ودرَج عليها المسلمون الأولون، كما تلقَّوا عن عهده في العلم والعمل، درَجوا عليها، وفي القبور الصدِّيقون والشهداء والصالحون، ولم يُؤْثَرْ عن أحد منهم شيء في زيارة هؤلاء الصالحين وراء ما شرَع في زيارة غيرهم: تَذَكُّر وتسليم ودعاء. وإذنْ، فما يفعله كثير منا في زيارة أصحاب الأضرحة الكاسية المزركشة، ذات المقاصير المفضَّضة، والقباب المزخرفة. تجاوُز للحد المشروع في زيارة القبور، واقتحام لغير المشروع باسم المشروع؛ فوقْفة الاستئذان على باب الضريح، واستقباله مع رفع الأكف بالضراعة والمناجاة، والطواف حوله مع تقبيل جوانبه والتمسُّح بحديده أو خشبه، وشرح القضايا والمهام، وتقديم العرائض وطلب الفصْل فيها، كل ذلك عمل غير مشروع، يأباه الله ويأباه الرسول، ويغضب منه أصحاب الأضْرحة أنفسهم. أولياء الله لا يَرْضَوْنَ هذه

[1] مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (١١١/٢٨).

المُنكَرات: وأولياء الله هم . بنصِّ كتاب الله . "الذين آمنوا وكانوا يتَّقون"[1] كانوا في حياتهم لله عبادًا مُخلصين، لم يتجهوا بقلوبهم إلى غير الله، ولم يقفوا ببابِ أحدٍ سواه، ولم يرفعوا أكُفَّ الضراعة إلا إليه، وأنهم كانوا يدعون الناس إلى هدي الله وشرعه، وهم يُحبون من الناس أن يَسلكوا سبيلهم، يَعبدون الله كما عبدوا، ويتقربون إليه بما تقربوا. فإذا ما سلكنا في زيارتهم ما سلكوا في زيارة أسلافهم طابتْ نفوسهم، واطمأنت أرواحهم، وإذا ما انحرفنا عن طريقهم . فوجَّهنا وُجوهنا في عبادة الله إليهم، واتَّخَذْنَا قبورهم مطافًا كالبيت الحرام، ومُستلمًا كالحجر الأسود، ومُصلًّى كمقام إبراهيم، وخاطبناهم بالدعاء والرجاء . فقد جافَيْنَا طريقهم وجفَوْناهم، وصِرْنَا إلى ما يُحزنهم، لا إلى ما يُرضيهم. هذا ما يجب أن يعلمه الناس حتى يعرفوا المشروع فيفعلوه، وغير المشروع فيجتنبوه، ولا ينبغي أن نَسكت مُجاراةً أو مُجاملة؛ فإن الساكت عن الحق شيطانٌ أخرَسُ. الدعوة التي هي أحسن: وإذا كان الله قد أخذ علينا العهد والمِيثاق أن نبيِّن للناس، فقد أمرنا أن يكون البيان، وأن تكون الدعوة بالتي هي أحسنُ، تجمع ولا تُفرق، وتُؤلف ولا تُنفِّر. وإذنْ لا ينبغي لنا أن نقسو باسم الدين وباسم الدعوة إليه، فنَتَّخِذ الحكم بالشرك وعبادة الأصنام على الزائرين بهذه الكيفية سبيلًا للدعوة، وطريقًا للبيان. كيف ونحن نعلم أن هؤلاء الزائرين. كما تنطق به أحوالهم . مؤمنون بعقائد الدين كلها، وبفرائضه كلها، ومؤمنون بأن النبي والوليَّ من عباد الله، خلقهما كما خلق العباد، وأمدَّهما بأسباب الحياة كما أمدَّ العباد، وأماتهما كما يُميت العباد، وأنه سيبعثهما كما يبعث العباد، وتلك عقيدة الإيمان الحقِّ التي لم يكن يُؤمن بها عُبَّاد الأصنام!! نعم، توارث هؤلاء . عن غير علْم . صورًا في زيارة الأضرحة، غير ما رسم الشرع في زيارة المقابر.

وبعد هذا الطرح المنصف لحكم الزيارة للأضرحة والأولياء لا يختلف أحد على وجود العديد من المظاهر الغريبة والبعيدة كل البعد عن التصوف الحقيقي التي نشاهدها من بعض المحسوبين على التصوف والطرق في الأضرحة والمقابر، ولكن الصوفية مثل سائر كل الأفكار يعلق بها من هم ليسوا على علم أو دراية بالفكرة،

[1] يونس، الآية/٦٣

ويبقى السؤال: ما علاقة التوسل والتبرك في الأضرحة بالتصوف العلمي الحقيقي؟ لا علاقة بين التصوف والتبرك لا توجد علاقة للتصوف كعلم من العلوم بالأضرحة أو التوسل أو التبرك، كما أن كتب علم التصوف وكبار السادة الصوفية لا وجود فيها للأضرحة أو التوسل أو التبرك باعتباره من أصول التصوف، أو من حتى من نتائج التصوف؛ بل يتلخص وجودها على الذكر والمجاهدة.

والرابط بين الصوفية والأضرحة حفظ الود وتمام الأدب؛ فزيارة الأضرحة – القبور– مندوبة في الشرع الشريف من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن الأرواح باقية والأجساد فانية، وتعلق الصوفية يكون بالأرواح وحفظ الود لها والأدب معها، لذلك يزورون مشايخهم وكل صاحب فضل عليهم، وكل من له علاقة بالله تأدبًا مع الله تعالى. والتبرك هو التماس وله معنى شريف من شرف العلاقة بين الصالحين والله عز وجل، دون أن يكون في ذلك اعتقاد نفع أو ضر في غير الله عز وجل؛ فالصحابة كانوا يلتمسون بركة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حيًا ومنتقلًا، كما التمس الصحابة أيضا بركة بعضهم بعضًا، وكذلك التمس التابعون بركة الصحابة لمعايشتهم النبي صلى الله عليه وسلم .

إن التوسل بالصالحين إلى الله –عز وجل– حال حياتهم وحال موتهم في التصوف من قبيل الدخول على الله من باب من سبق وصدق، لا واسطة بين الله وعبده، ولكن الله يسبب الأسباب، ولو أزال الله الأسباب فما فائدة إرسال الرسل. كان يمكنه –عز وجل– أن يدعو الناس من عنده من غير رسول، ولكنه –عز وجل– يعرف ما جبلت عليه فطرة عباده، ويريد أن يشرف بعض خلقه بما اختصهم من النبوة والولاية.

كما أنه لا يوجد فرق عند الصوفية في التوسل بين حي وميت، بل لا فرق في التوسل بالحي أو الميت عند جمهور علماء الأمة، والصوفية لا يعتقدون إلا في الله،

ولهذا جعلوا الحي كالميت؛ لأن الله هو الحي الفاعل الخالق المعطي في الحقيقة، أما نحن فمجرد عدم؛ نظرًا لأن وجودنا عرضي قائم بمدد الله تعالى.

إن المتصوفة لا ينسون أهل القبور، ولا يرموهم وراء ظهورهم كمن انشغل بالأحياء لإتمام مصالحه الدنيوية الفانية، وذلك لأن الصوفية يحفظون الود ولا يرون الفضل إلا من الله عز وجل دون إنكار الأسباب.

أما عن الأفعال التي تحدث عند الأضرحة والأقوال التي تقال ويراها البعض تخالف الشرع، فهي ممنوعة لا يقبلها شرع ولاعقل، وإنما هي تكون من الدخلاء والمرتزقة والمحسوبين على الصوفية لا علاقة للتصوف الإسلامي بها. ومن خلال عرض الحكم الشرعي لزيارة الأضرحة وقبور الأولياء تبين لدى الباحث أنه لا مانع من زيارة قبور الأولياء والصالحين شأنها شأن أي قبر من باب التذكرة والعظة بعيدًا عن مظاهر الغلو وما يؤدي إلى الشرك بالله تعالي . وحتي لا نكون بعيدًا عن الواقع؛ فإن ما يحدث الآن عند الأضرحة من أمور شركية وطلب المدد والعون من غير الله؛ فإن الباحث يميل إلي المنع من الزيارة من باب عدم تكثير سواد أصحاب البدع وعدم المشاركة في الأمور الشركيه التي تؤثر على عقيدة كل مسلم وتودي به إلى الهلكة.

سادسًا– كرامات الأولياء والصالحين من الخصائص التي تميز بها الصوفية الكرامات المنسوبة إلي أوليائهم، ومشايخ طرقهم، والكرامة هي الأمر الخارق لما تعود عليه البشر أن يجدوه مقبولًا عقلًا ومطابقًا لقوانين ونظم الطبيعة والحياة غير أن هذا الأمر الخارق لا يقترن بدعوى نبوة، ولا سحر؛ وإنما يخص الله أولياءه العارفين بها، قال القشيري" واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصي والمخالفات " [١]

ومن أشهر الكرامات في الطرق الصوفية مسك الثعابين والسيخ الذي يخترق خدي الإنسان من غير أن يحدث أثرًا، أو نقطة دم عند أصحاب الطريقة الرفاعية،

[١] بستان العارفين للإمام أبي زكريا النووي ص٦٠

وكذلك في الطريقة الدسوقية ما ذكره المناوي في الكواكب الدرية، ونقله عنه النبهاني في كرامات الأولياء حيث قال: إن من كراماته أن التمساح خطف صبيًا، فأتته أمه مذعورة؛ فأرسل نقيبة فنادى بشاطئ البحر معشر التماسيح من ابتلع صبيًا؛ فليطلع به فطلع ومشى معه إلي الشيخ؛ فأمره أن يلفظه فلفظه حيًا، وقال للتمساح مت بإذن الله فمات.[1]

هذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فلكل طريقة كرامات معينة – على حد زعمهم– ولعل السبب في انتشار تلك الكرامات ظروف المجتمع الاقتصادية والسياسية الهابطة التي عاشها المجتمع المصري منذ القرن السابع، وما تلاه من قرون ضعف وانقسام وتفكك ساعد على ذيوع كثير من الكرامات حول شيوخ الطرق الصوفية؛ فلقد وجد حول كل ولي مجموعة من المنتفعين الذين يعيشون على حساب سمعة ذلك الولي حيًا أو ميتًا؛ فيظهروا شيخهم في صورة القادر على كل شيء من شفاء المرضى وتفريج الكروب، وإلى غير ذلك من الأمور، ومن هنا بدأ أصحاب الحاجات الذهاب إلي الشيوخ وأتباعهم؛ فيقدمون النذور والصدقات في مقامه؛ فإذا رضى الشيخ عنهم فإن طلبهم مجاب وحاجتهم مقضية[2]، ومن ذلك فإن من مصلحة المريدين تصوير شيخهم بصورة القادر على كل شيء .

يقول الدكتور زكي مبارك " والاعتقاد في الكرامات عزاء كبير للفقراء فهم يخلقون لأنفسهم دنيًا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة" ومما سبق تبين أن المشايخ والأولياء الذين نسبت إليهم هذه الكرامات هم أناس أتقياء أنقياء راقبوا الله في السر والعلن، وأن ما نسب إليهم من كرامات – على حد زعم مريديهم– إنما هو افتراء لا صحة له، وإنما هي وسيلة للمرتزقة والمكتسبين من وراء هؤلاء الأعلام العظماء.

---

[1] طبقات الشرنوبي طبعة مصر ١٣٠٥هـ ص ٢،٣،٤.وذكره عنه أيضًا الشيخ فرج غنيم في كتابه غذاء الباحث في التصوف ص ٣٢،٣٤

[2] كتاب السيد البدوي للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ص ١٤٤،١٤٥

هذا بالإضافة إلى أن هناك عدة مظاهر مختلفة بين الطرق الصوفية عامة، فلكل طريقة ما يميزها عن الأخرى مثل لون الزي الذي يرتديه الأتباع والأعلام التي يحملها المريدون، فمثلًا علم البدوية وزيهم لونهما أحمر، والدسوقية أخضر، وأتباع الجيلانية والرفاعية يعرفون باللون الأسمر؛ أما الطريقة الشاذلية فيعرف أتباعها بالأعلام المتعددة الألوان، كذلك لكل طريقة مبادئ وأوراد معينة – علي حد زعمهم – مما له الأثر البالغ على العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ومن خلال ما سبق في هذا المبحث تبين للباحث أن المخالفة عند الصوفية في طريقة الممارسة، وفي المحسوبين علي التصوف الإسلامي الصحيح لا في الخصائص نفسها إذ إنه لو التزم الصوفي المنهج الصحيح في ممارسة هذه الخصائص فلا يعد مخالفًا للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

قائمة المصادر والمراجع:

١- إحياء علوم الدين، المؤلف : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر : دار المعرفة – بيروت

٢- بستان العارفين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار الريان للتراث

٣- تاريخ الجبرتي ط١٣٢٢هـ القاهرة ج١:- نقلاً عن د غامر النجار : الطرق الصوفية في مصر

٤- التصوف النفسي ، عامر النجار (دكتور) : ط عام ١٩٨٤م القاهرة

٥- التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي: مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة مصر ،ط ٣ ، ١٤٠٠هـ

٦- التعريفات، الجرجاني : طبعة حلبي ، القاهرة . مصر ، د.ط ، ١٩٣٨م

٧- حجة الذاكرين ورد المنكرين، عبد القادر الآربلي : ط جريدة الإسكندرية، مصرعام١٢٩٩هـ

٨- حلية الرموز ومفاتيح الكنوز – أو بين الشريعة والحقيقة، العز بن عبد السلام، العدد رقم٢٥ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة، عام١٩٦١م.
٩- الرسالة القشيرية القشيري ، دار الكتاب العربي بيروت
١٠- روضة الطالبين وعمدة السالكين الغزالي ، دار السعادة . مصر ، د.ط ، ١٩٢٤،.
١١- سنن ابن ماجه ت الأرناؤوط، المؤلف: ابن ماجة – وماجة اسم أبيه يزيد – أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد – محمَّد كامل قره بللي – عَبد اللّطيف حرز الله، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.
١٢- سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م
١٣- السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م
١٤- ظهور الحقائق في بيان اللطائف، السيد بن عبد الله بن علي بن حسن الغطاس ، ط عام ١٣١٢هـ.
١٥- عوارف المعارف السهروردي ، دار الكتاب العربي : بيروت . لبنان ، د.ط ، ١٤٠٣هـ
١٦- الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، أحمد محمود صبحي (دكتور) ، نشر دار المعارف بالقاهرة ،ط عام ١٩٦٩م.

١٧- القاموس المحيط : مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة : بيروت ، ط ٨ ، ٢٠٠٥م
١٨- اللمع في أصول الفقه، المؤلف : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
١٩- اللمع للطوسي، حققه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر_ مكتبة المثنى بغداد ، د . ط ، ١٣٨٠هـ_١٩٦٠م
٢٠- المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠م.
٢١- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
٢٢- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٣- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.
٢٤- معجم اللغة العربية المعاصرة المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل الناشر: عالم الكتب الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٢٥- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

٢٦- الموسوعة العربية الميسرة: ج١ محمد شفيق غربال

٢٧- الموسوعة العقدية إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net

٢٨- نشأة الفلسفة الصوفية عرفان عبد الحميد ، ط٨ ، ص ١٠٨ .

٢٩- النظريات في فلسفة الوجود والعقل والخير، علي زيعور، أسئلة الأيسيات والمعرفيات والقيميات، دار النهضة العربية: بيروت لبنان، ط ١٤٢٦ ، ١هـ ، ٢٠٠٦م.

٣٠- الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة) المؤلف: عبد الله بن عبد الحميد الأثري مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ